

النورسي رجل الحوار والإقناع
أو فصل المقال، فيما بين الحوار والحجاج والاختلاف من اتصال

-ABSTRACT-

al-Nursi, Man of Dialogue and Persuasion or Apposite Discourse, on the Link Between Dialogue, Argument, and Opposition

Prof. Dr. Abu Bakr al-'Azawi

This research aims to highlight the importance of dialogue and persuasion and their relevance to disagreement, unity and agreement through the Risale-i Nur Collection. This research will try to answer the following questions: What is dialogue? What is its role and importance? What is its relationship to debate and to the qualities of persuasion and disagreement? How do we deal with all its different types and patterns? How do we solve the problems how do we deal with internal and external crises? Do we deal with them using persuasion, communication and dialogue, or by severing relations and rivalry? Was Nursi a man of dialogue and persuasion? What is his position on controversy and disagreement? What is the vision of our relationship with the West and/or non-Muslims? What are the principles underlying his position? What support did he offer from the Koran and the Hadith? These questions are the tip of the iceberg that this research will try to tackle.

- ملخص البحث -

أ.د. أبو بكر العزاوي¹

يهدف هذا البحث إلى إبراز أهمية الحوار والإقناع وصلتهما بالاختلاف والوحدة والاتفاق من خلال رسائل النور. وحاول الباحث أن يجيب عن الأسئلة الآتية: ما هو الحوار؟ ما دوره وأهميته؟ وما علاقته بالحجاج والإقناع والاختلاف؟ كيف نتعامل مع الاختلاف بكل أنواعه وأنماطه؟ وكيف نواجه المشاكل والأزمات الداخلية والخارجية؟ هل نواجهها بالإقناع والتواصل والتحاور، أم نواجهها بالتقاطع والتناوب؟ هل كان النورسي رجل حوار وإقناع؟ ما هو موقفه من الخلاف والاختلاف؟ وما هو تصوره لعلاقتنا بالغرب أو بغير المسلمين؟ ما هي المبادئ التي يقوم عليها موقفه؟ وما سند ذلك من القرآن الكريم والحديث النبوي؟ هذه الأسئلة -وهي غيض من فيض- هي ما سيحاول هذا البحث الإجابة عنها أو عن بعضها ولو بشكل جزئي.

أولاً: معنى الحوار وأهميته:**١- معنى الحوار:**

الحوار فعالية خطابية، وهو الأصل في الكلام، ويرى المنطقي السويسري الشهير جان يليز غريز (J.B.Grize) أن كل خطاب هو حوار، سواء أكان هذا الحوار مباشراً أم غير مباشر، صريحاً أم مضمراً. وهو يرى أن الجملة الشارحة لأي قول: "ق" ليست هي: (أقول: "ق") ولكن هي: (أقول لك: "ق").² ولأهمية الحوار وفوائده الكبرى في تحقيق التواصل والتفاعل وحل المشاكل وتدبير الاختلاف، فقد وجدنا الباحثين يهتمون به في كل المجالات الفكرية والعلمية والثقافية.

٢- أهمية الحوار:

لقد أصبح الحوار ضرورة ماسة يقتضيها التعدد اللغوي والتنوع الثقافي واختلاف المصالح الاقتصادية والسياسية، وأضحى اللجوء إليه أساسياً لحل المشاكل والأزمات الدولية العديدة وإدارة الصراعات الحضارية القائمة وتدبير الاختلافات الداخلية والخارجية. ومن هنا أصبحت بعض العبارات كثيرة الاستعمال، متسعة الرواج في عصرنا هذا من قبيل: حوار الحضارات، حوار الشمال والجنوب، الحوار الإسلامي المسيحي، الحوار العربي الأوربي، الحوار الاجتماعي، المفاوضات وغيرها. فحيث يكون الاختلاف والصراع والصدام والنزاع، ينبغي أن يكون الحوار والنقاش والتفاوض والإقناع.

والإنسان كائن حوارى يحيا بالحوار وداخل الحوار، والدليل على أهمية الحوار أن القرآن كله ذو طبيعة حوارية، والحوار كان هو الأسلوب الذي اتبعه الأنبياء في الدعوة والتبليغ والتعليم والإرشاد.³ لقد عني القرآن الكريم عناية كبيرة بالحوار لأنه الأسلوب الأفضل للإقناع.

٣- الحوار في الأصول الإسلامية:

أورد القرآن الكريم نماذج عديدة من الحوار نذكر منها على سبيل التمثيل لا الحصر: حوار الله عز وجل مع الملائكة، حوار عز وجل مع إبراهيم الخليل، وحوار نوح عليه السلام مع قومه، حوار إبراهيم الخليل مع النمرود، قصة صاحب الجنتين، قصة المجادلة... الخ. والسنة النبوية والسيرة العطرة زاخرتان بالنماذج الحوارية الرائعة التي حاور فيها الرسول صلى الله عليه وسلم قومه وحاجهم.

ثانياً: موقف بديع الزمان سعيد النورسي من الحوار

تساءل في المستهل، ترى هل كان النورسي رجل حوار وإقناع؟ نعم إنه كان كذلك. إنه كان يدعو إلى الحوار والتواصل والحجاج والإقناع، وكان في الوقت نفسه يحاور ويحاجج، يقنع ويقتنع، يتفاعل ويتواصل، ويتحاور مع الذات ومع الغير، مع الطلاب والعلماء، مع المسلمين وغير المسلمين، مع الحكام والمحكومين.

إذا كان النورسي رجلاً قرآنياً وكان منهجه بالتالي هو منهج القرآن، وإذا كان القرآن الكريم قد عني عناية فائقة بالحوار، فكيف لا يكون النورسي رجل حوار، وكيف لا تكون رسائل النور حوارية في منهجها وأسلوبها وهي تفسير قيم للقرآن الكريم.

إن المرجعية القرآنية والحديثية، كما أشرنا إلى ذلك في بحث سابق،⁴ حاضرة في رسائل النور حضوراً قوياً وبارزاً، نكاد نلمسها في كل قول وفي كل شرح أو تفسير.

١- يستشف دارس رسائل النور أننا أمام نص استلهم معانيه ومقاصده من القرآن الكريم، وموضوع الحوار في الرسائل لم بمنأى عن هذه الخصيصة، ذلك أنّ من درس رسائل النور بعمق وتمعن يتوصل إلى النتائج التالية:

أ- المدقق في رسائل النور يلاحظ أنّها ذات بنية حوارية واضحة، إنّها بعبارة أخرى، مجموعة من الحوارات المباشرة وغير المباشرة، الحوارات الصريحة أو المضمرة، الحوارات المنجزة الفعلية أو المفترضة المتخيلة.

ب- الحوار في رسائل النور له أشكال عديدة وأنماط متنوعة، فقد جاء تارة على شكل مناجاة أو مونولوج (حوار مع النفس)، وجاء تارة أخرى على شكل مكاتيب ومراسلات مع الطلاب (الملاحق). وقد جاء أيضاً على شكل مناظرة أو مناقشة أو نقد أو جواباً عن أسئلة.

ج- اشتملت رسائل النور على معجم حوارى ثري. فتحن نجد فيها مصطلحات كثيرة من قبيل: الحوار، المحاور، النقاش، الجدل، المناقشة، المناظرة، المذاكرة، الإقناع، الاقتناع، المناجاة، التشاور، الرسائل، المكاتيب، الأسئلة والأجوبة، الخطاب، إلى غير ذلك.

د- المؤشرات الحوارية التي تدل دلالة أكيدة على أن رسائل النور هي مجموعة من الحوارات، ميزتها الكثرة والتنوع.

٢- مميزات مجموعة حوارات رسائل النور:

أ- هناك مجموعة من العبارات أو على الأصح مجموعة من العناوين الفرعية الداخلية التي ترد في مطلع بعض الفقرات أو المباحث من قبيل: حوار في رؤيا، حوار مع الشخصية المعنوية لأوربا، حوار مع المؤمنات أخوات الآخرة، حوار مع النفس، حوار مع فريق من الشباب، محاوره مع نفسي، محاوره مع وزير العدل والحكام الذين لهم علاقة برسائل النور، خطاب إلى أوربا، خطاب إلى الذين يغالون في العنصرية... الخ.

ج- العبارات الإشارية الإحالية، أي الضمائر وظروف الزمان والمكان، وأيضا لفظ القول بمشتقاتها، وألفاظ أخرى من قبيل: اعلموا، تعلمون، وتعابير مثل: إختوتى الأعداء، أخي العزيز المحترم، أيها الإنسان ويا نفسي... الخ.

٣- نماذج من الحوارات في رسائل النور:

ويمكن أن نورد في هذه العجالة نماذج من الحوارات التي تزخر بها رسائل النور، منها على سبيل المثال لا الحصر.

أ- نبدأ بهذا النموذج الذي يخاطب فيه الشخصية المعنوية لأوربا، وبالضبط أوربا الثانية، غير النافعة للبشرية. يقول النورسي: "يا أوربا الثانية، اعلمي جيدا أنك قد أخذت بيمينك الفلسفة المضلة السقيمة، وبشمالك المدنية المضرة السفيهة، ثم تدعين أن سعادة الإنسان بهما. ألا شلت يداك، وبئست الهدية هديتك، ولتكن وبالا عليك، وستكون. أيتها الروح الخبيثة التي تنشر الكفر وتبث الجحود، ترى هل يمكن أن يسعد إنسان بمجرد تملكه ثروة طائلة، وترفله في زينة ظاهرة خادعة، وهو المصاب في روحه وفي وجدانه وفي عقله وفي قلبه بمصائب هائلة؟ وهل يمكن أن نطلق عليه أنه سعيد؟ (...). فأى سعادة يمكنك أن تضميني لمثل هذا المسكين الشقي؟ وهل يمكن أن نطلق لمن روحه وقلبه يعذبان في جهنم، وجسمه فقط في جنة كاذبة زائلة، أنه سعيد؟"⁵

ب- يحاور أوربا الثانية ليدفعها إلى مراجعة نفسها وللقيام بنقد ذاتي تكون الغاية منه العمل على إسعاد الإنسان روحا وجسما. وهناك أيضا الحوار الذي أجراه مع بطريك الروم "أشنو كراس" سنة ١٩٥٣ في الاحتفال الذي أقيم بإسطنبول بمناسبة مرور خمسمائة عام على فتحها. وقد التقى النورسي، في هذا الاحتفال، ببطريك الروم، فجرى بينهما الحوار التالي:⁶

- سعيد النورسي: يمكن أن تكونوا من أهل النجاة يوم القيامة إذا آمنتم بالدين النصراني الحق بشرط الاعتراف بنبوّة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وبالاعتراف بالقرآن الكريم كتاباً من عند الله.

- البطريك: إنني أعترف بذلك.

- سعيد النورسي: حسناً، فهل تعلنون ذلك أمام الرؤساء الروحانيين الآخرين؟

- البطريك: أجل إنني أقول ذلك ولكنهم لا يقبلون.

ليس بإمكان النورسي وهو الذي آمن بأهمية الحوار واتخذ أسلوباً في الحياة للتواصل مع الغير، ومسلماً في حل المشاكل وتدبير الاختلاف إلا أن يحاور ويحاور باستمرار، ولقد حاور كل الفئات والطوائف البشرية، وحاور أصحاب الديانات التوحيدية المختلفة. وهو هنا يحاور - من خلال بطريك الروم - أتباع النصرانية الحقيقية مركزاً على عناصر الوحدة والاتفاق، وكأني بالنورسي يطبق قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، آل عمران: ٦٤ وقوله عز وجل في سورة العنكبوت: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾. العنكبوت: ٤٦.

ج- تشتمل رسائل النور، إلى جانب هذه الحوارات التي أجراها النورسي مع الآخر، الذي نختلف معه فكرياً أو عقدياً أو ثقافياً، على نمط آخر من الحوار، إنه الحوار البيداغوجي التعليمي، ونقصد به الحوارات التي كان يجريها باستمرار مع طلبته والتي تضمنها المجلد السابع من رسائل النور: "الملاحق في فقه دعوة النور".

هذه الملاحق عبارة عن مجموعة مكاتيب جرت بين الأستاذ النورسي وطلابه الأوائل، وطابعها العام توجيهي إرشادي يبين أهمية رسائل النور ومنهجها في الدعوة إلى الله في هذا العصر، وتكتنفها مكاتيب ودية يبين فيها الطلاب مدى استفادتهم الروحية من رسائل النور واستفادتهم العقلية منها وكيف أنها حولت مجرى حياتهم وفتحت أمامهم آفاقاً معرفية واسعة.⁷

ثم إنه كان يأخذ بمنطق الأولويات وبمبدأ السياق، فحاور أوروبا النافعة وحاور النصرانية الحقّة وحاور المدنيين من غير المسلمين مستنداً إلى الدليل العقلي والنقلي، ومستنداً إلى الحجاج وقوة الإقناع.

٤- شروط الحوار في رسائل النور:

ثم إننا وجدنا النورسي يضع لنا قواعد الحوار والمناقشة وضوابطهما بعد أن أثير نقاش وجدال حول صحة أحد الأحاديث يقول: "إن الشرط الأول في مناقشة هذه المسائل وأمثالها هو: أن تكون المذاكرة في جو من الإنصاف وأن تجري بنية الوصول إلى الحق.. وبصورة لا تتسم بالعناد.. وبين من هم أهل للمناقشة.. دون أن تكون وسيلة لسوء الفهم وسوء التلقي. فضمن هذه الشروط قد تكون مناقشة هذه المسألة وما شابها جائزة. أما الدليل على أن المناقشة هي في سبيل الوصول إلى الحق فهو: أن لا يحمل المناقش شيئاً في قلبه.. ولا يتألم ولا ينفعل إذا ما ظهر الحق على لسان الطرف المخالف له، بل عليه الرضى والاطمئنان، إذ قد تعلم ما كان يجهله، فلو ظهر الحق على لسانه لما ازداد علماً وربما أصابه الغرور. ثانياً إن كان موضوع المناقشة حديثاً شريفاً فينبغي معرفة مراتب الحديث.. والإحاطة بدرجات الوحي الضمني وأقسام الكلام النبوي. ولا يجوز لأحد مناقشة مشكلات الحديث بين العوام من الناس.. ولا الدفاع عن رأيه إظهاراً للتفوق على الآخرين ولا البحث عن أدلة ترجح رأيه وتنمي غروره على الحق والإنصاف"⁸.

ومعلوم أن الحوار له قواعد وضوابط لغوية وتأديبية وأخلاقية. وهناك نظريات ونماذج حوارية عديدة طرحت في هذا المجال،⁹ نذكر منها نظرية التعاون الحوارية (la coopération conversationnelle) لبول غرايس (P. Grice) ومفادها أن الحوار لا يتم بين شخصين إلا إذا تعاونوا على إنجازها، وقد ركزت بالخصوص على القواعد اللغوية التي تتعلق بكم الخبر وكيفه وجهته ومناسبته، وهناك أيضاً نظريات كل من روبين لاكوف (R. Lakoff) وليتش (Leech) وبراون ولفنسن التي أبرزت لنا كثيراً من القواعد التأديبية الأخلاقية، ثم إن التراث العربي الإسلامي زاخر بالمباحث والمصنفات التي تعالج ضوابط الحوار وأدابه.

وقد اقترح النورسي في النص السابق مجموعة من القواعد الحوارية نذكر بعضها - بعد إعادة صياغتها- على سبيل التمثيل:

أ- قاعدة الشمولية، ونجدها في قوله (ينبغي معرفة مراتب الحديث... والإحاطة بدرجات الوحي الضمني وأقسام الكلام النبوي).

ب- قاعدة التأدب: فالمناقشة لا ينبغي أن تتسم بالعناد، وأن تجري في جو من الإنصاف.

ج- قاعدة الورد أو المناسبة: أن تكون المذاكرة في المسائل المتخصصة بين من هم أهل للمناقشة، أي أن نأخذ بعين الاعتبار مسألة السياق والمقام، فلكل مقام مقال كما يقال.

د- القاعدة المتعلقة بالهدف والغاية من الحوار، فالمناقشة ينبغي أن تجري بنية الوصول إلى الحق، وأن يكون هناك تعاون حوارى فعلى من أجل تحقيق هذا الهدف المنشود والغاية المرجوة.

وقد فصل النورسي القول بخصوص القاعدة الثالثة فقال: ”ولكن لما كانت المسألة قد طرحت، وأصبحت مدار نقاش، فستؤدي تأثيرها السيء في أفهام العوام الذين يعجزون عن استيعاب أمثال هذه الأحاديث المتشابهة، إذ لو أنكرها أحدهم فقد فتح لنفسه باباً للهلاك والخسران، حيث يسوقه هذا الإنكار إلى إنكار أحاديث صحيحة ثابتة، ولو قبل بما يفيد ظاهر الحديث من معنى، وتحدث به ونشره بين الناس، فسيكون سبباً لفتح باب اعتراضات أهل الضلالة على الحديث الشريف، وإطلاق ألسنتهم بالسوء عليه، وقولهم: إنه خرافة“¹⁰

والحديث الشريف الذي أثار الإشكال هو الذي يذكر فيه أن سيدنا موسى عليه السلام لطم عين سيدنا عزرائيل عليه السلام، فهل ننكر الحديث أم نأخذ بظاهر المعنى أم نؤول، أي نبحت عن معنى ضمنى سياقي، وهذه المسألة تندرج هي الأخرى ضمن قواعد الحوار والنقاش العلمي.

ولهذا يقول النورسي: ”لا ينبغي فتح باب المناقشة في الأمور الفرعية الجزئية التي تسبب الخلاف“¹¹.

ثالثاً: الحوار والاختلاف في رسائل النور:

١- صلة الحوار بالاختلاف:

لقد قلنا آنفاً إن الأصل في الكلام الحوار، ونقول الآن إن الأصل في الحوار الاختلاف فلولا الاختلاف ما كان الحوار ولولا الحوار ما كان الكلام. ومعنى هذا أن ثمة علاقة وثيقة بين الحوار والاختلاف، ونحن نلجأ إلى الحوار والإقناع لرفع الخلاف وتدبير الاختلاف وتحقيق الاتفاق.

الاختلاف ظاهرة طبيعية وسنة كونية، والناس مختلفون في كل شيء لاختلاف مصالحهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية.

٢- كلمة الاختلاف في المصادر الأصلية:

لقد وردت كلمة الاختلاف في القرآن الكريم أكثر من ثلاثين مرة وبصيغ لغوية متعددة، وقد ألف العلماء الأقدمون والمحدثون مصنفات عديدة في موضوع الاختلاف، وبينوا فيها أنماطا عديدة منه. فهناك من تحدث عن الاختلاف المشروع والاختلاف الممنوع، وهناك من قسم أنواع الاختلاف إلى ثلاثة: اختلاف تضاد واختلاف تنوع واختلاف أفهام. وما يعيننا هنا بالخصوص هو العلاقة القائمة بين الحوار والاختلاف والإتفاق والسعي إلى الوصول إلى الحقيقة.¹²

٣- أنواع الاختلاف في رسائل النور:

أشار النورسي إلى أنواع عديدة من الاختلاف:

أ- أوربا النافعة وأوربا الفاسدة.

ب- النصرانية الحقيقية والنصرانية الزائفة.

ج- المدنية والهمجية.

د- المسلمون والأجانب.

هـ- المذاهب المختلفة.

و- الخلاف والاختلاف.

ح- الاختلاف والاتفاق.

ط- الاختلاف الإيجابي والاختلاف السلبي.

ي- الخلاف الداخلي والاختلاف الخارجي.

ص- الضروريات والفرعيات... الخ.

تعامل مع كل نمط تعاملًا خاصًا، فأيد الاختلاف الإيجابي وحارب الاختلاف السلبي وبيّن أهمية الوحدة والاتحاد والاتفاق، ودعا إلى تدبير الاختلاف بالحوار والحجاج والإقناع وخاصة عندما يتعلق الأمر بالمدينين من غير المسلمين.

ولنأخذ هذا النص الجميل الذي يذكر فيه بعض فوائد الاختلاف، ويبين فيه الفرق بين الاختلاف الإيجابي والاختلاف السلبي، فيقول: "الاختلاف يقتضي التفرقة والتحزب والاعتداد بالرأي. ولكن داء التفرقة والاختلاف هذا فيه وجه من الرحمة لضعفاء الناس من العوام، إذ ينقذهم من تسلط الخواص والظلمة الذين إذا حصل بينهم اتفاق في قرية أو قصبه اضطهدوا هؤلاء الضعفاء ولكن إذا كانت ثمة تفرقة بينهم

فسيجد المظلوم ملجأ في جهة، فينقذ نفسه. ثم إن الحقيقة تتظاهر جلية من تصادم الأفكار ومناقشة الآراء وتخالف العقول. “ثم يزيد المسألة وضوحاً، فيقول في سياق بيان نوعية الاختلاف المشار إليه في الحديث فقال: ”إن الاختلاف الوارد في الحديث هو الاختلاف الإيجابي البناء المثبت ومعناه: أن يسعى كل واحد لترويج مسلكه وإظهار صحة وجهته وصواب نظرتة، دون أن يحاول هدم مسالك الآخرين أو الطعن في وجهة نظرهم وإبطال مسلكهم، بل يكون سعيه لإكمال النقص ورأب الصدع والإصلاح ما استطاع إليه سبيلاً. أما الاختلاف السلبي فهو محاولة كل واحد تخريب مسلك الآخرين وهدمه، ومبعثه الحقد والضغينة والعداوة، وهذا النوع من الاختلاف مردود أصلاً في نظر الحديث، حيث المتنازعون والمختلفون يعجزون عن القيام بأي عمل إيجابي بناء.“ ثم يختم بالتوقف عند احتمال آخر يقول: ”إن كان التفرق والتحزب لأجل الحق وباسمه، فلربما يكون ملاذ أهل الحق، ولكن الذي نشاهده من التفرق إنما هو لأغراض شخصية ولهوى النفس الأمارة بالسوء، فهو ملجأ ذوي النيات السيئة بل متكأ الظلمة ومركزهم“¹³.

فالنورسي يرفض الاختلاف السلبي الهدام الذي لا فائدة منه ولا يساعد على الوصول إلى الحقيقة، والاختلاف يصبح هنا خلافاً، فكل خلاف اختلاف وليس كل اختلاف خلافاً لأن الخلاف أقرب ما يكون إلى الصراع والنزاع. قال النورسي: ”يا عاشق الحقيقة إن كنت تتحرى الحقائق بمطالعة وجداني أنا، فظهر قلبك، تلك اللطيفة الربانية، من الصدا، أي الرغبة في المعارضة والخلاف. والتزام طرف المخالف والمعارض“¹⁴.

أما الاختلاف الإيجابي الذي يساعدنا على الوصول إلى الحق وإدراك الحقيقة فهو مطلوب، لأن الحقيقة إنما تظهر لنا جلية واضحة عند مناقشة الآراء ودراسة المواقف وتصادم الأفكار وتخالف العقول. والمناقشة والمذاكرة وتصادم الآراء والأفكار حوار، والحوار لا يكون إلا عند حصول الاختلاف. وبعبارة أخرى فإن الاختلاف يستدعي الحوار والحوار يقتضي الكلام. ومن جهة أخرى فإن النورسي يأخذ بمبدأ النسبية: الفهم البشري نسبي والإدراك جزئي، والعجز عن الإدراك إدراك، والحقيقة متعددة الجوانب والمظاهر والسمات، فلا بد من الحوار والمناظرة والنقاش والحجاج والإقناع حتى تتجلى لنا جوانب عديدة ومتكاملة من جوانب الحقيقة، وخاصة إذا كانت الغاية واحدة بين المتناظرين وكان الهدف المنشود مشتركاً وهو الوصول إلى

الحق. وهذا ما عبر عنه النورسي بقوله: ”إن تصادم الآراء ومناقشة الأفكار لأجل الحق وفي سبيل الوصول إلى الحقيقة إنما يكون عند اختلاف الوسائل مع الاتفاق في الأسس والغايات فهذا النوع من الاختلاف يستطيع أن يقدم خدمة جليلة في الكشف عن الحقيقة وإظهار كل زاوية من زواياها بأجلى صور الوضوح، ولكن إذا كانت المناقشة والبحث عن الحقيقة لأجل أغراض شخصية والتسلط والاستعلاء وإشباع شهوات نفوس فرعونية ونيل الشهرة وحب الظهور، فلا تتلمع بارقة الحقيقة في هذا النوع من بسط الأفكار بل تتولد شرارة الفتن. فلا نجد بين أمثال هؤلاء اتفاقاً في المقصد والغاية، بل ليس على الكرة الأرضية نقطة تلاق لأفكارهم، ذلك لأنه ليس لأجل الحق.“¹⁵

يبين النورسي في هذا النص العلاقة بين الحوار والاختلاف، سواء أكان هذا الاختلاف فكرياً أم عقدياً أم سياسياً، لكن بشرط أن تكون الغاية هي الوصول إلى الحق، فهنا الاختلاف يقتضي الحوار والنقاش.

وهو يدعو المسلمين إلى عدم التركيز على الخلاف والاختلاف، لأن هذا لا يكون إلا في المسائل الفرعية الاجتهادية، أما المسائل الضرورية فهي ثابتة محددة.

قال الأستاذ النورسي: ”إن أركان الدين وأحكامه الضرورية، نابعة من القرآن الكريم والسنة النبوية المفسرة له، وهي تشمل تسعين بالمائة من الدين، أما المسائل الخلافية التي تحتمل الاجتهاد فلا تتجاوز العشرة منه، فالبون إذن شاسع بين أهمية الأحكام الضرورية والمسائل الخلافية، فلو شَبهنا المسائل الاجتهادية بالذهب لكانت الأحكام الضرورية وأركان الإيمان أعمدة من الألماس. ترى هل يجوز أن تكون تسعون عموداً من الألماس تابعة لعشرة منها من الذهب؟ وهل يجوز أن يوجه الاهتمام إلى التي من الذهب أكثر من تلك التي من الألماس؟“¹⁶

لقد بين النورسي الفرق بين الاختلاف الإيجابي والاختلاف السلبي، وبين أيضاً أن الاختلاف الإيجابي يقتضي الحوار والنقاش لأنه يعين على بلوغ الحقيقة. وأشار إلى أن الاختلاف في الأمور الدينية والفقهية إنما هو في الأمور الفرعية التي تقبل الاجتهاد، ونسبتها لا تتجاوز ١٠% أما الأمور الضرورية، وهي كثيرة، فهي موضع اتفاق. ولنأخذ هذا النص البليغ الذي يقارن فيه بين الاتفاق والاختلاف، يقول: ”إن كان الاتفاق في الحق اختلافاً في الأحق، يكون الحق أحياناً أحق من الأحق، والحسن

أحسن من الأحسن. ويحق لكل امرئ أن يقول في مذهبه: (هو حق، هو حسن)، ولكن لا يحق له القول: (هو الحق، هو الحسن)“¹⁷. ففي هذا النص كلام عجيب ومنطق أعجب، فيه دعوة إلى الاتفاق واجتناب الاختلاف لتحقيق الوحدة والانسجام بلغة علمية حجاجية استدلالية، وكأني بالنورسي هنا يستلهم القاعدة الأصولية المعروفة: ”درء المفاسد مقدم على جلب المصالح“¹⁸.

يبين الأستاذ النورسي في هذا المقام أنّ الحق مع الاتفاق أفضل من الأحق مع الاختلاف، وطبعاً، فالحق هنا مقدم على الأحق، والحق أحق بأن يختار ويتبع، ولولا مسألة الاتفاق والاختلاف لكان الأحق مقديماً على الحق.

فلو تعاملنا مع الحق والأحق مجردين لكان الأحق أحق من الحق، ولكن لما كانا غير مجردين، فكان الحق متفقا عليه وكان الأحق فيه اختلاف، أصبح الحق أحق من الأحق. فهناك مراتب ثلاث نوردتها كالاتي:

- الحق: أي الحق بما هو حق، أو الحق المجرد.

- الأحق من الحق: وهو كذلك بموجب معايير موضوعية. ولكنه أصبح دون الحق منزلة لأنّ الاختلاف حاصل بشأنه والحق متفق عليه.

- الأحق من الأحق: وقد يكون كذلك بموجب الموضوعية، أو أنّ الحق المتفق عليه أصبح - كما قال النورسي - أحق من الأحق.

يأخذ النورسي هنا بمبادئ الواقعية والانسجام والورود والملاءمة والسياق.

إنّ الاتفاق والاتحاد هو ما ينبغي العمل على تحقيقه والتمسك به أما التفرقة والنزاع والخلافات الداخلية بين المسلمين فينبغي تركها ونبذها، وخاصة في الظروف العصبية: ”إنّ أشدّ القبائل تأخراً يدركون معنى الخطر الداهم عليهم، فتراهم ينبذون الخلافات الداخلية وينسون العداوات الجانبية عند إغارة العدو الخارجي عليهم. وإذا تقدر تلك القبائل المتأخرة مصلحتهم الاجتماعية حق قدرها، فما للذين يتولون خدمة الإسلام ويدعون إليه لا ينسون عداوتهم الحزبية الطفيفة فيمهدون بها سبل إغارة الأعداء الذين لا يحصرهم العد عليهم؟ فلقد تراصف الأعداء حولهم وأطبقوا عليهم من كل مكان“¹⁹.

رابعاً: مجالات الحوار وأساليبه وضوابطه.**١- مجالات الحوار:**

لم يتوقف الأستاذ النورسي في مجال الحوار والتواصل عند التنبيه إلى أهميته بين المسلمين فحسب، بل جاوزه إلى العناية به وتنميته في علاقات المسلمين بغيرهم، لهذا يدعو إلى تواصل وتحاور المسلمين وغير المسلمين، وإلى اللجوء إلى أسلوب الإقناع والحجاج والاستدلال، فقال: ”وليطمئن غير المسلمين بأن اتحادنا هو الهجوم على هذه الصفات الثلاث (الجهل والحاجة والنفاق) ليس إلا، وبالنسبة إليهم فسيبنا الإقناع، لأننا نعتقدهم مدنيين، وأنا مكلفون بأن نظهر الإسلام بمظهر الجمال والحسن المحبوب لأننا نظن فيهم الإنصاف“.²⁰ وذكر في نص آخر: ”إن الظهور على المدنيين من منظور الدين إنما هو بالإقناع وليس بالإكراه، وبإظهار الإسلام محبوباً وسامياً لديهم وذلك بالامتثال الجميل لأوامر وإظهار الأخلاق الفاضلة. أما الإكراه والعداء، فهما تجاه وحشية الهمجيين“.²¹

٢- أساليب الحوار الناجع:

في ظل التوجهات السابقة كان النورسي داعياً إلى اعتماد قوة المنطق لا منطق القوة لأن الإسلام دين الحوار والحجاج والإقناع، لا دين الإكراه والعداء وهو ما نجده في قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، البقرة: ٢٥٦ و ”لا“ الوارد هنا هي ”لا“ النافية وليست الناهية كما ذهب إلى ذلك علماء كثيرون منهم سعيد رمضان البوطي وجودت سعيد وغيرهما.

وإذا كان النورسي يدعو إلى استعمال أسلوب الإقناع والحجاج مع المدنيين من غير المسلمين، فإنه يدعو ضمناً إلى الحوار والتفاعل والتواصل معهم ضمن الشروط الحوارية والتخاطبية المطلوبة، وهذا بحكم العلاقة القائمة بين الحوار والحجاج، فالأصل في الحجاج إنجاح الحوار وتديير الاختلاف ورفع الخلاف وتحقيق الاتفاق. فلولا الاختلاف ما كان الحوار، ولولا الحوار ما كان الإقناع والحجاج، ولولا الحجاج ما كان الخطاب والكلام. ولا شيء أفضل من التواصل والحوار والحجاج والإقناع والاتقاع لفض الخلاف ونبذ الاختلاف.²²

ومعلوم أن الحجاج نسبي والإقناع جزئي، والمطلوب منا أن نحاور ونحاجج ونبرهن ونقنع باستمرار، فإن اقتنع الغير فذاك، وإن لم يقتنع فلنحاول مرة تلو أخرى.

قال بديع الزمان سعيد النورسي: ”إن وظيفتنا العمل والإيمان والقرآن بإخلاص، أما إحراز التوفيق وحمل الناس على القبول ودفع المعارضين، فهو مما يتولاه الله سبحانه، نحن لا نتدخل فيما هو موكول إلى الله، حتى إذا غلبنا فلا يؤثر هذا في قوانا المعنوية وخدماتنا“.²³

والسؤال المطروح هو كالتالي: ما هو دور الإقناع والحجاج؟ وما علاقته باللغة والكلام؟ ولم يتشبث به النورسي ويدعو إليه؟

الجواب هو أننا نتكلم عادة بقصد التأثير في الغير، وأن الكلام له سلطة لا ينكرها أحد، ولقد قال جورج تشامبان: ”ما أقوى النفوذ الذي تحدثه الكلمات في مواضعها الصحيحة“. إن الكلام هو الوسيلة الأخص بالكائن البشري، وهو أبرز مقوم يميزه عن الكائنات الأخرى، وهو سلاح من أقوى الأسلحة، ووظيفته الأساسية هي الحجاج والإقناع، وهو المجال الذي يتحقق فيه أقل قدر ممكن من العنف، ويتحقق فيه، في الوقت نفسه، أكبر قدر ممكن من النفوذ والغلبة والتأثير، ويكون فيه هامش كبير للمرونة واليسر والتسامح، ومن هنا فإن الذي ينتصر عليك بقوة المنطق وسلطة الكلام وأدوات الحجاج والإقناع، يكون قد انتصر عليك انتصاراً حقيقياً.²⁴

وينبغي أن نفهم دعوة النورسي إلى اعتماد أسلوب الإقناع والحجاج في هذا الإطار. ولنتأمل هذا النص الذي يميز فيه بين الجهاد الداخلي الذي ينبغي أن يقوم على تحقيق الرقي المادي ومحاربة الجهل والتخلف والنزاع والفرقة، والجهاد الخارجي المتمثل في الإقناع وقوة المنطق. يقول: ”نحن سنجاهد بسلاح العلم والتقنية الجهل والفقر والخلاف الذي هو ألد أعداء كلمة الله. أما الجهاد الخارجي فنحيله إلى السيوف الألماسية للبراهين القاطعة للشريعة الغراء، لأن الغلبة على المدنيين إنما هي بالإقناع وليس بالإكراه كما هو شأن الجهلاء الذين لا يفقهون شيئاً، نحن فدائيو المحبة لا مكان بيننا للخصومة“.²⁵

ولكن السؤال المطروح هو: لماذا ربط النورسي الإقناع بالمدينة؟ الجواب هو أن الإنسان مدني بالطبع كما قال ابن خلدون، وهو ما أكده النورسي بقوله: ”من كانت همته نفسه، فليس من الإنسان لأنه مدني بالطبع، فهو مضطر لأن يراعي أبناء جنسه، فإن حياته الشخصية يمكن أن تستمر بحياته الاجتماعية“.²⁶ وإذا كان قد ربط الإقناع بالمدينة، فقد ربطه أيضاً بالإنسان لأن المدنيين ينبغي إقناعهم، والإنسان مدني، إذن

الإنسان ينبغي إقناعه. ثم إنه يربط الإقناع بأخص خصائص الإنسان وهو الكلام، فلولا الحوار والخطاب ما كان الإقناع والافتناع والحجاج.

ولهذا فإن النورسي يرى أن التواصل والتعامل مع الغرب شيء مطلوب، لكن بشرط عدم الانبهار وبشرط اتخاذ الحيطة والحذر وعدم تقليده وتبني القيم الفاسدة التي لديه، وبشرط الحفاظ على الهوية والأصالة. وهذا سيمكننا طبعاً من:

– الاستفادة من علومه ومنجزاته العلمية والحضارية والتكنولوجية.

– نشر الإسلام وإعلاء كلمة الله.

ونشر الإسلام إنما يكون بالحوار والتواصل والإقناع، لا بالعرف والإكراه، لأن الإسلام سلام ولأن الإنسان مدني فطرة، والمدنيون ينبغي التحاور معهم وإقناعهم بالدليل والمحاكمة العقلية.

وينبها النورسي إلى أن الحوار والتواصل مع الغرب لا يعني:

أ – الانسلاخ من الدين وإهماله، لأن علاقتنا مع الدين غير علاقتهم به، يقول: ”ألا فليعلم المهملون غير المكثرئين أنهم لا يحبون أنفسهم بالانسلاخ من الدين لأي أجنبي كان، وإنما يظهرون أنهم على غير هدى ليس إلا“.²⁷

بل الأكثر من هذا هو أن ”التهاون في تطبيق الشعائر الدينية يفضي إلى ضعف الأمة، والضعف يغري العدو فيكم، ويشجعه عليكم، ولا يوقفه عند حده“.²⁸

ب- لا يعني أيضاً تقليد الأجانب واتباعهم والتأثر بهم في كل شيء، لأنهم: ”كما سلبوا أموالنا وأوطاننا بثمن بخس (...) فقد سلبوا منا قسماً من أخلاقنا الرفيعة وسجايانا الحميدة والتي بها يترابط مجتمعنا وجعلوا تلك الخصال الحميدة محورا لرقبهم وتقدمهم، ودفعوا إلينا نظير ذلك رذائل طباعهم وسفاهة أخلاقهم“.²⁹ إن التخلف العلمي والضعف المادي والتأخر التكنولوجي والهوان المعنوي والتهميش الحضاري جعلنا ننظر إلى الغرب نظرة مغلوطة ونسلك في تعاملنا معه سلوكاً يكرس تخلفنا، وجعلنا نسقط في الاندهاش والانبهار والتقليد والاتباع.

٢- ضوابط الحوار مع الغرب:

بعد السعي الدائب لأجل الإقناع بالحوار مع الإنسان المتمدن في الغرب يضع

الأستاذ بين أيدينا جملة من الضوابط الأساسية لأجل عملية الحوار، يتعلّق بعضها بتحرير مقاصد الحوار، ومسالك التعامل مع الآخر، والشروط الأخلاقية والمعرفية، لتحقيق المسعى بفعالية عالية، ولتخصّ النورسي ضوابط الحوار والتفاعل مع الغرب فيما يأتي:

أ- ينبغي أن يكون التواصل مع الأجانب بغاية إعلاء كلمة الله، وكل مؤمن هو مكلف بالقيام بهذا الواجب.

ب- ينبغي أن يكون الحوار والتواصل قائما على الندية والتكافؤ العلمي والراقي المادي الحضاري حتى يكون الحوار حقيقيا ومنتجا.

ج- أن يتحقق الإسلام فينا قولاً وعملاً، فنرفع الأوهام، ونصحح الصورة ونظهر للغرب حقيقة الإسلام وفضائله، أي أن نظهره بمظهر الجمال والحسن المحبوب.

د- الإقناع بالدليل والمحاكمة العقلية.

هـ- الاعتماد على الكتب المقدسة الصحيحة، يقول النورسي بهذا الصدد: "إن الذي يسوق جمهور الناس إلى الاتباع وامثال الأوامر هو ما يتحلّى به المصدر من قدسية، هذه القدسية هي التي تدفع جمهور الناس إلى الانقياد أكثر من قوة البرهان ومثانة الحجّة".³⁰

بعد الدعوة إلى الحوار والتواصل والنورسي مع الغرب والأجانب فقط، يسعى جاهدا لتطويره فنصل إلى الاتفاق والتعاون مع المتدينين منهم ضد العدو المشترك الذي يسعى إلى هدم الأديان وتخريب القيم والأخلاق ونشر الظلم والعدوان، وهو ما يتجلى لنا من قوله: "إن أهل الإيمان والحقيقة في زماننا هذا ليسوا بحاجة إلى الاتفاق الخالص فيما بينهم وحده، بل مدعوون أيضا إلى الاتفاق حتى مع الروحانيين المتدينين الحقيقيين من النصراري فيتركوا مؤقتا كل ما يثير الخلافات والنقاشات دفعا لعدوهم المشترك المعتدي".³¹ ونستشف هذا الموقف أيضا من حوار النورسي مع بطريك الروم "اشنو كراس" الذي أوردناه آنفا.

الخاتمة:

إعلاء كلمة الله لن تكون بغير الرقي المادي "إذ الأجانب يسحقوننا تحت تحكّمهم المعنوي بسلاح العلوم والصناعات"،³² وهذا لن يتحقق إلا بواسطة التواصل

والحوار والتفاعل مع الغرب للاستفادة من معارفه ومنجزاته في مجال العلم والتقنية، كما أنّ الغلبة على المدنيين أو الجهاد الخارجي لن يكون إلا بالإقناع، وسبيله الحوار، وأداته اللغة، وزيادة إلى ما سلف فإنّ إعلاء كلمة الله ونشر الإسلام الذي هو دين تسامح وسلام لن يكون إلا بتحقيق الإسلام وتجليه في أقوالنا وأفعالنا وأحوالنا.

عالمنا هذا متعدد الثقافات، وكثير من المجتمعات نجد فيها أنماطاً من التعدديات: تعددية عرقية، تعددية دينية، تعددية فكرية، تعددية لغوية... إلى غير ذلك، وحيث يكون التعدد الثقافي والتنوع الحضاري والاختلاف الفكري تكون الحاجة ماسة إلى الحوار والتواصل والإقناع. وتعدد الثقافات واللغات والمجتمعات تتعدد أوجه الفاعلية وتتعدد قنوات التأثير، في ظل هذه الظروف العالمية يدعو الأستاذ إلى الحوار المضبوط والتسامح المشروع والتعاون المقبول. فالتسامح في غير سياق الحرب محبوب، والتواصل من موقع الندية والتكافؤ مطلوب، إنه رجل الحوار والإقناع والحجاج.

المصادر:

- القرآن الكريم.
- إحسان قاسم الصالحي: بديع الزمان النورسي: نظرة عامة عن حياته وآثاره، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٩٩.
- طه عبد الرحمان: اللسان والميزان، المركز الثقافي العربي، البيضاء.
- العزاوي أبو بكر: "المنظومة الأخلاقية عند النورسي"، أعمال المؤتمر العالمي السادس ٢٠٠٢، إسطنبول.
- العزاوي أبو بكر: "الحوار والحجاج وقبول الاختلاف أساس التربية على حقوق الإنسان"، مجلة **عالم التربية**، العدد: ١٥، البيضاء، ٢٠٠٤.
- العزاوي أبو بكر: "سلطة الكلام وقوة الكلمات"، مجلة **المناهل**، العدد: ٦٢-٦٣، وزارة الثقافة، الرباط.
- العزاوي أبو بكر: "البنية الحجاجية للخطاب القرآني: سورة الأعلى نموذجاً"، مجلة **المشكاة**، العدد: ١٩، وجدة.
- النورسي سعيد: المكتوبات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر، إسطنبول.
- النورسي سعيد: اللغات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر، إسطنبول.
- النورسي سعيد: صيقل الإسلام، ترجمة إحسان قاسم، دار سوزلر، إسطنبول.
- النورسي سعيد: المثنوي، تحقيق إحسان قاسم، دار سوزلر، إسطنبول.
- النورسي سعيد: الملاحق، ترجمة إحسان قاسم، دار سوزلر، إسطنبول.
- النورسي سعيد: سيرة ذاتية، ترجمة وإعداد إحسان قاسم، دار سوزلر، إسطنبول.
- النورسي سعيد: الخطبة الشامية، ترجمة إحسان قاسم، الاحمدية للنشر، الدار البيضاء، ٢٠٠١.

الهوامش:

- 1 أستاذ التعليم العالي، جامعة السلطان مولاي سليمان بني ملال، المغرب.
- 2 انظر أعمال جان بليز غريز بخصوص الحوار والحجاج.
- 3 انظر الحوار الذي أجري مع كاتب البحث وهو بعنوان: "الحوار والحجاج وقبول الاختلاف أساس التربية على حقوق الإنسان"، مجلة عالم التربية، العدد: ١٥، ٢٠٠٤.
- 4 أبو بكر العزاوي: "المنظومة الأخلاقية عند النورسي" أعمال المؤتمر العالمي السادس، إسطنبول.
- 5 النورسي: اللغات، اللعة السابعة عشرة، المذكرة الخامسة. ص ١٦٢.
- 6 إحسان قاسم الصالحي: بديع الزمان النورسي: نظرة عامة عن حياته وآثاره، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٩٩.
- 7 من المقدمة التي وضعها إحسان قاسم الصالحي لكتاب "الملاحق" لسعيد النورسي، دار سوزلر، إسطنبول.
- 8 سعيد النورسي: المكتوبات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، ص: ٤٥٢.
- 9 انظر الحوار الذي أجري مع صاحب البحث، المشار إليه آنفا وانظر كذلك كتاب "اللسان والميزان" للدكتور طه عبد الرحمن، وخاصة الفصل الذي يحمل عنوان: "التواصل الإنساني والتعامل الأخلاقي".
- 10 النورسي: المكتوبات، ص: ٤٥٢.
- 11 النورسي: الملاحق، ص: ٢٩٦.
- 12 انظر الحوار المشار إليه آنفا.
- 13 النورسي: المكتوبات، ص: ٣٤٦-٣٤٧.
- 14 النورسي: صيقل الإسلام، ص: ١٣٥.
- 15 النورسي: المكتوبات، ص: ٣٤٨.
- 16 النورسي: صيقل الإسلام، ص: ٣٤٧.
- 17 النورسي: المكتوبات، (نوى الحقائق)، ص: ٦٠٩.
- 18 قاعدة "درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة" من القواعد المتفرعة عن القاعدة الكلية "الضرر يزال".
- 19 النورسي: المكتوبات، ص: ٣٤٩.
- 20 النورسي: صيقل الإسلام، ص: ٥٣٠.
- 21 النورسي: الخطبة الشامية، ترجمة إحسان قاسم، الأحمديّة للنشر، البيضاء، ص: ٩٠.
- 22 انظر الحوار المشار إليه سابقا.
- 23 النورسي: الملاحق، ص: ٣٤٥.
- 24 الحوار، مصدر سابق.
- 25 النورسي: الخطبة الشامية، ص: ٧٩.
- 26 النورسي: نفس المصدر، ص: ٥٧.
- 27 النورسي: صيقل الإسلام، ص: ٥٣٠.
- 28 النورسي: المثنوي، ص: ٢٠٤.
- 29 النورسي: الخطبة الشامية، ص: ٥٦.
- 30 النورسي: صيقل الإسلام، ص: ٣٤٧.
- 31 النورسي: الملاحق، ص: ٢٩٩.
- 32 النورسي: الخطبة الشامية، ص: ٧٩.